مقالة تذكارية

ابن سينـــــا

بمناسبة انقضاء تسعمائة سنة على وفاته

للدكتور زكي علي

في سنة ١٩٣٢ خطر لكاتب هذه السطور بينما كان يقوم ببعض الأبحاث في معهد تاريخ الطب بفينا أن يُحيي ذكرى طبيب الإسلام الأشهر « ابن سينا » في الوقت المناسب بنشر بعض الرسائل العلمية عن حياته في المجلات الطبية وغيرها

وجرى وقتئذ بيني وبين الأستاذ ماكس نويبرجر — وهو من أشهر علماء تاريخ الطب اليوم — حديث في هذا الشأن لفت نظري في سياقه إلى رسالة لأحد الأطباء من الأتراك الكماليين حاول فيها أن ينسب ابن سينا إلى العنصر التركي تمشياً مع نعرة الجنس التي تغلغلت في تركيا الكمالية وشوّهت في كثير من الأحيان وجه الحقائق التاريخية تبريراً لغاية قومية

وقد نشرت « الرسالة » في أحد أعدادها في الصيف الماضي نبأ مؤداه أن جامعة استانبول احتفلت بإحياء ذكرى « ابن سينا » أنبغ طبيب في الإسلام . ولما كان ابن سينا فارسي الأصل فقد أراد الكماليون بعملهم هذا تجريده من فارسيته وإقامة الدعوى الباطلة على أنه ينتمي إلى الجنس التركي ، وبذلك تكون عبقريته النادرة من مفاخر القومية التركية ؛ وفي هذا افتيات على التاريخ والعلم لا تبرره العصبية الجنسية

* * *

يلقب ابن سينا في الشرق « بالشيخ الرئيس » وفي الغرب « بأمير الأطباء » حيث عرفته أوروبا باسم Avicenna واسمه الكامل أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، وقد أجمع المؤرخون على اعتبار شخصيته إحدى الظواهر الفكرية العجيبة التي سجلها تاريخ الطب والفلسفة كما أنه من أعظم العلماء الذين أنجبهم الشرق إذ جمع في نفسه شخصية الطبيب والفيلسوف والشاعر والفلكي والسياسي والعالم بطبقات الأرض ، وبلغ بذلك ذروة النبوغ وقمة الشهرة بين علماء الإسلام شرقاً وغرباً ؛ وحسبك ما ذكره عنه الطبيب المؤرخ الأمريكي كامستون إذ قال : « يعتبر ابن سينا معجزة من معجزات العقل الراجح ويجوز أنه لم يسبقه ولم يظهر بعده من العلماء من يدانيه في حدة الذكاء وسرعة نبوغ العقل بالنسبة للعمر مع عزم ونشاط لا يعرف الملل وهمة شاسعة الحدود »

ولد ابن سينا بقرية تسمى « أفشنة » بالقرب من « حرميثن » من أعمال بخارى وذلك سنة ٩٨٠ م (٣٧٠ هـ) وكان أبوه من بلخ ثم انتقل إلى مملكة بخارى في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية وكانت يومئذ غاصة بالعلماء فوجه أبوه إلى من حفّظه القرآن وعلوم الأدب

وظهرت بوادر نبوغ ابن سينا وعبقريته منذ الطفولة فما بلغ العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ودرس النحو والأدب والفقه ، ثم تعمق الفتى في دراسة شتى العلوم بحماسة وجد بالغين ، فأتى على منطق أرسطو وفلسفته وأكب على تحصيل الهندسة والطبيعة والفلك فأتقن ذلك كله ولم يتجاوز السادسة عشرة . وكان من نعومة أظفاره يحس من نفسه ميلاً خاصاً إلى دراسة الطب فأقبل على تعلمه بسرعة غريبة إذ أكمل معارفه فيه واشتهر أمره كطبيب بارع ونطاسي ماهر بعد أن جاوز عمره الثامنة عشرة بقليل . وصادف إذ ذاك أن مرض السلطان نوح بن منصور حاكم بخارى لذلك العهد ورأى أطباؤه أن يستشيروا ابن سينا في أمر معالجته ، فاستدعى صاحب الترجمة فأشار بعلاج حاسم كان فيه شفاء السلطان فأحسن مكافأته وسمح له بالاطلاع على نفائس مكتبته الخاصة التي حوت كثيراً من الكتب العلمية النادرة فوعى ابن سينا زبدة ما فيها وعكف على الدرس والبحث سنوات ما كان يذوق فيها طعم النوم إلا غراراً ، ومما قاله عن نفسه : « لازمت العلم وكنت كلما أحار في مسئلة ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى يفتح لي المنغلق منه ويتيسر المتعسر . وكنت أشتغل ليلاً في داري بالكتابة والقراءة فإن غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي ثم أرجع إلى القراءة ، فإن غلبني النوم حلمت بالمسائل التي كنت أعالج حلها حتى إن كثيراً منها انفتح لي بالمنام »

وأخذ ابن سينا فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره فصنف موسوعة علمية ضمنها كثيراً من العلوم الطبيعية وكتب فى الفلسفة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) عدة رسائل

وفى غضون تلك المدة صار ابن سينا مضرب المثل فى البراعة الطبية وذاع صيته لما أوتيه من النجاح فى علاج المرضى الذين كانوا يفدون إليه من فجاج الأرض ، وله في ذلك كثير من النوادر العجيبة التى تناقلها الرواة والمؤلفون (١)

ثم لما بلغ صاحب الترجمة الثانية والعشرين من عمره نكب بوفاة والده فانتابته بعد ذلك الشدائد ، وزاد فى محنته وأهواله أن اضمحلت الدولة السامانية وكانوا حماته الذين تعهدوه بالرعاية والتشجيع ، فخرج من مملكة بخارى قاصداً « كركانج » عاصمة « خوارزم » التى كان يحكمها الأمير على بن مأمون ، غير أن الضيق لازمه فتنقل فى البلاد شريداً ثم ألقى عصا الترحال فى « جرجان » حيث كان يقصد أميرها « قابوس » الذى اشتهر بتأييده للعلماء فصادف وصوله سقوط قابوس عن عرشه وحبسه فى بعض القلاع وما لبث أن مات ، فتألم ابن سينا لذلك ألماً شديداً وأنشأ قصيدة قال فيها :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعى لما غلا ثمنى عدمتُ المشترى

ثم هام على وجهه فى الآفاق إلى أن وصل أخيراً إلى «همدان» ودخل فى خدمة أميرها شمس الدولة وعالجه علاجاً ناجحاً إذ كان يشكو مرضاً شديداً بالمعدة ، فأحسن الأمير صلته وقلده الوزارة ولم تمنعه أعمال الدولة ومهام المنصب عن مواصلة نشاطه الطبي وأبحاثه العلمية ، فألف في ذلك الوقت الجزء الأول من كتابه الأشهر « القانون فى الطب » ، وكان يقضى النهار فى مباشرة شئون الدولة ويحيى الليل بالمحاضرة والتدريس وإملاء المذكرات على تلاميذه ، فإذا انتهى من محاضرته استبق مستمعيه وهُيِّئ مجلس الغناء والأنس والموسيقى ترويحاً للنفوس من عناء الدرس

على أن هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والنشاط ما لبثت أن عصفت بها رياح الفتن السياسية ودسّ أعداء صاحب الترجمة له واتهم بأن له صلة سياسية وثيقة بأمير أصفهان وسجن فى إحدى القلاع وهناك لازم التأليف . ثم إنه أفلح أخيراً فى الفرار من سجنه بعد أن تنكر فى زى الصوفية وقصد أصفهان حيث استقبله أميرها بكل أنواع الحفاوة والإكرام وصار موضع إكبار الجميع وصحب السلطان في كثير من غزواته إذ كان طبيبه الخاص ووزيراً للدولة وعكف على إنجاز مؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم وفي مقدمتها كتابه « القانون فى الطب » الذى أذاع اسمه وخلّد شهرته فى الشرق والغرب مدى ستة قرون ، ودوّن كتبه فى الفلسفة والفلك وعلم النفس وفقه اللغة والعلوم الطبيعية والكيماوية وغيرها ، ولم ينقطع برغم هذا كله عن ممارسة مهنة الطب التى فاق فيها كل معاصريه وأوصله نبوغه فيها إلى مكانة ليس وراءها غاية

وقد أنهكت الجهود الجبارة والعمل الشديد المتواصل قواه فمات ولم يتجاوز عمره السابعة والخمسين سنة ١٠٣٧م

ويمتاز ابن سينا بغزارة مادته الأصلية فى التأليف ، وتنوع العلوم والفنون التى ترك فيها آثاراً قيمة ، وضخامة كثير من كتبه النفيسة التى كانت بمثابة دوائر معارف شاملة

ولا جدال فى أن كتابه « القانون فى الطب » — وهو أهم مؤلفاته ، وأضخمها إذ يحتوى على نحو مليون كلمة — الفضل الأكبر فى ذيوع تعاليم ابن سينا وآرائه الطبية فى كل الأقطار ، ثم فى بقاء تأثيره نافذاً متسلطاً على مصير الطب في الشرق والغرب مدى عدة قرون . وقد نوه الطبيب المؤرخ الإيطالى كاستليونى فى كتابه « تاريخ الطب » المطبوع سنة ١٩٣١ بأن تميز « قانون ابن سينا » على كل ما سواه من كتب الطب فى العصور الوسطى راجع إلى دقة ابن سينا فى الشرح والتحليل بطريقة تهذيبية تعليمية بارعة ، وإلى إتقان تبويبه وتقسيمه وترتيب المواضيع الطبية التى عالجها بحيث كفى الأطباء فى ذلك — العصر مؤونة البحث فيما عداه »

وقد دون ابن سينا فى « قانونه » كل علوم الطب إلى زمنه ، ونقحها وزاد عليها آراءه وملاحظاته ومشاهداته الأكلينيكية ، ويقع فى خمسة كتب أساسية . وبقى هذا الكتاب يدرس فى جامعات أوربا زهاء ستة قرون ، واستمر المرجع الأساسى فى تدريس الطب بجامعتى مونبلييه ولوفان حتى ختام القرن السابع عشر .

(١) ذكرنا شيئاً من ذلك فى رسالتنا « الطب العربى وتأثيره فى مدنية أوربا » طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١

وترجم «القانون» إلى اللاتينية فى طليطلة فى القرن الثانى عشر نقله جيرار دى كريمونا ثم ظهرت له بعد ذلك طبعات لاتينية أخرى تعد بالعشرات . ونشرت منه طبعة عربية فى روما سنة ١٥٩٣ ، وفى بولاق بمصر سنة ١٨٧٧ ، وظهرت له فى أوربا عدة شروح ، كما ترجمت أجزاء منه إلى الفرنسية والألمانية والانجليزية وغيرها من لغات أوربا ، وترجم أيضاً إلى التركية والفارسية (١)

وقد أحصى العلامة الألماني وستنفلد من مؤلفات ابن سينا مائة وخمسة فى علوم الطب والفلسفة والدين والفلك واللغة والأدب والموسيقى والهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، ونكتفى هنا بذكر أسماء بعضها : فمن كتبه التى نقلت إلى اللاتينية وغيرها من لغات أوربا ، بعد « القانون » كتاب « قلب الانسان » و « الأرجوزة فى الطب » و « الشراب » و « مختصر الحيوان » « والحجر الفلسفى » و « السماء والعالم » و « النفس » و « ما بعد الطبيعة » و « الطبيعيات » و « الكيمياء » و « المنطق » و « الحدود » و « التعريفات » و « الفلسفة الأولى »

ثم كتاب « الشفاء » فى الفلسفة وترجم إلى اللاتينية بعنوان Liber Sufficientis ولا يزال الأصل العربى موجوداً . وله فى الفلسفة أيضاً كتاب « النجاة » و « الإشارات » ورسائل فى الإنصاف والمسائل العشرين، والمباحثات، والجوهر الذى لا يتحرك، وتقسيم العلوم الفلسفية ، وحد الجسم ، وشرح كتاب النفس لأرسطو وما بعد الطبيعة ، وكل هذه لا تزال باقية

ومن كتبه فى الفقه والتوحيد الإلهيات والجانة الإلهية ثم له القصيدة العينية الشهيرة فى النفس التى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وفيها يقول:

إن كان أرسلها الإله لحكمة
طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالة بكل خفيـــة فى العالمين خرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقـد غربت بغير المطلع
فكأنهـا برق تألق للحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وفى المنطق كتاب الإشارة وكتاب المشرقيين ورسالة العروس ؛ وله فى العلوم الطبيعية والرياضية والآداب والسياسة والفقه والموسيقى واللغة العربية وعلومها مؤلفات كثيرة بعضها موجود فى مكاتب أوروبا وبعضها مفقود

وقد ترك ابن سينا وصفاً علمياً صحيحاً لتكوين الجبال ، ذكره درابر ووتنجتون ، واعتبره جاريسون الأمريكى مبرراً لتسمية ابن سينا « أبا علم طبقات الأرض » (الجيولوجى)

ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر آراء ابن سينا الفلسفية ولهذا نقتصر على إيراد المهم من مشاهداته واكتشافاته الطبية

امتاز ابن سينا على أبقراط وأرسطو وجالينوس بدقته فى مناقشة الحالات المرضية ومهارته فى فن تشخيص الأمراض (Semiologie) ومبحث أسباب المرض (aetiologie) وهو أول من وصف مرض الالتهاب السحائى « السرسام الحار » وصفاً صحيحاً وميزه عن الأمراض الحادة المصحوبة بالهذيان ، وكان ذلك يلتبس على أطباء اليونان ؛ كما أنه أتقن وصف سير هذا المرض والانذار فيه . ومما يدل على دقة ملاحظاته الاكلينيكية ذكره أن التهاب البلورا « ذات الجنب » والتهاب الرئة « ذات الرئة » قد تنتج عنهما أعراض سرسامية بهيئة مضاعفات ، وأن التهاب السحايا فى تلك الحالات يعتبر نذيراً سيئاً إذ تعقبه الوفاة عادة .

وأجاد ابن سينا أيضاً فى شرح أمراض الجهاز التنفسى ، وقال بضرورة التمييز عن تشخيص ذات الجنب بين التهاب البلورا الحقيقى ، وبين الالتهاب البسيط للعضلات بين الضلوع وبين التهاب المنصف الصدري (الحيزوم) وخراج السطح الأعلى للكبد .

وأتقن ابن سينا وصف الأمراض العصبية ، وبوجه خاص الأشكال المختلفة للشلل وللفالج النصفى ولشلل الوجه (اللقوة) واهتدى إلى التمييز بين نوعى اللقوة : المركزى والموضعي وشرح باسهاب التشخيص التمييزى بينهما

(١) عنى بعض علماء أوربا فى السنوات الأخيرة بالتعمق فى دراسة مؤلفات ابن سينا الطبية والفلسفية ونشرها فجدا أن تعنى الحكومة المصرية باعادة طبع كتاب « القانون » طبعة حديثة إحياء لتراث العظماء من السلف

ومما أشار إليه ابن سينا أن المخ والعظام خلافاً لرأي القدماء قد تكون مقراً للأورام

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف وهي طريقة أعاد إدخالها في العلاج الجراح الفرنسي كالو سنة ١٨٩٦ . ولابن سينا طريقة شائقة طريفة في وصف الأمراض العقلية ، وله الفضل في ابتكار كثير من طرق العلاج النفساني

وكان جالينوس يقول بأن السكتة (ضربة الدم أو النقطة) يندر أن تكون مسببة عن البليثورا وهذا خطأ ، فخالفه ابن سينا وقال بالعكس ، مستنداً إلى مشاهداته الإكلينيكية ، بأن البليثورا من أكثر الأسباب المهيئة لحدوث السكتة

ومما ذكره ابن سينا ولم يسبقه إليه أحد أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها في الربيع والخريف وأنها أكثر وقوعاً في هذين الفصلين ، كما ذكر أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين

ودرس ابن سينا بدقة أمراض الكبد وطريقة فحصه ووصف بمهارة أعراض اليرقان بأنواعه بما يتفق والأوصاف الحديثة ؛ وشرح عند الكلام على أمراض المعدة ، أعراض ضيق البوّاب والقرحة المعدية وأفاض في شرح أضرار إدمان الكحول على الكبد ، وعلّل السبب الفيزيولوجي لتلافيف الأمعاء . وتكلم ابن سينا طويلاً عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته وعن خطر سرطان عنق الرحم

ووصف طريقة علاج البواسير بالشق ، وأشار عند الكلام على الدُبَيلة (تجمع الصديد في جوف البلورا أو الإمبيما) بعلاجها بالشق عليها لتفريغ الصديد ، وذكر طريقة رد خلع الكتف بالضغط المباشر . وأما في علم الديدان فهو أول من وصف الدودة المعروفة باسم الفرّتيت أو العِرْق المدني Vera medinensis

ثم إن أوصاف ابن سينا في التشريح أكمل في بعض الأحيان من أوصاف جالينوس . وذكر بُورْدَال أن ابن سينا كان ذا معرفة تامة بتشريح القزحية وإنسان العين والقناة الدمعية وأنه أول من اكتشف اندغام عضلات العين

وقد أدخل ابن سينا في مادة الأدوية عدداً كبيراً من العقاقير الطبية التي لم تكن مستعملة من قبل

« جيف » زكي علي .

لطلبة السنة التوجيهية

تطلب الكتب الآتية من ملتزم نشرها

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الذخيرة

في شرح محفوظات النصوص الأدبية

لمحمد أحمد جاد المولى بك ، محمد أبو بكر ابراهيم ، حسن حسنين مخلوف

دروس الرياضة

للقسم الأدبي

للدكتور محمد علي حجاب ، امبابي كفافي ، محمود حمودة قنديل

الجبر والتحليل الرياضي

للقسم الرياضي

لمحمد بيه شيمي ، الدكتور صادق بشارة ، متري جرجس

الطبيعة للسنة التوجيهية

للقسمين العلمي والرياضي

لجعفر محمد الفراوي ، حبيب اسكندر ، حسن الجندي .

الضوء للسنة التوجيهية

للقسمين العلمي والرياضي

للدكتور محمود أحمد الشربيني ، عزيز ميلاد فريصة

الطبيعة التوجيهية

للقسم الرياضي الإضافي

للدكتور محمود أحمد الشربيني ، عزيز ميلاد فريصة

المطالعة الافرنسية

للقسمين العلمي والرياضي

للسيو بول الجو

المطالعة الافرنسية

للقسم الأدبي

للسيو بول الجو

أمنجد في الكيمياء

للقسمين العلمي والرياضي

لجعفر محمد الفراوي ، حبيب اسكندر